الملتقى الوطني: قضايا المصطلح في الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة

يومي 10-11 نوفمبر 2015

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة-

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

مداخلة: "قراءة في المصطلح البلاغي بين النحاة والبلاغيّين"

أ.د رابح دوب

مقدّمة:

إنّ النحاة هم أصحاب السّبق في نشأة البلاغة العربيّة في أطوارها الأولى على الرّغم من أنّها كانت في بداياتها الأولى ملاحظات متفرّقة هنا وهناك ضمن المباحث النّحويّة ومصنّفاتهم اللّغويّة، ثم جاء الدّارسون من بعدهم فاستغلّوا هذه الملاحظات وصنعوا منها آراء بلاغيّة تكاد تكون قواعد ناضجة.

النحاة والبحث البلاغي:

ذهب بعض الدّارسين إلى أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنى(ت210هـ) هو أوّل مَن تناول المصطلح البلاغي، ولعلّ الذي جعلهم يعتقدون هذا الرّأي هو كتابه المشهور "مجاز القرآن" الذي يحمل عنوانا بلاغيّا صرِفا، لكن غاب عن هؤلاء الدّارسين المصّنفات التي سبقت أبا عبيدة، فلم يلتفتوا إلى آراء الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي له مصطلحات بلاغيّة كثيرة، فهو أوّل مَن تحدّث عن الطباق مثلا وذلك عند الحديث عن تطابق الدواب ذات الأربعة أرجل بأن تطابق بين الرجل الأمامي والخلفي فقد عبّر عن الطّباق في الألفاظ بهذه الطريقة التي لاحظها عند ذات الأربعة أرجل ومن ثمّة أصبحت بعد ذلك مصطلح الطباق والمطابقة شائعا جدّا في الدّراسات البلاغيّة، وأصبح فنّا من فنون علم البديع.

فالخليل قد تناول العديد من فنون البلاغة فعرّفها وتحدّث عن خفة الألفاظ وسهولتها وعن ثقلها وصعوبتها وما يطرأ على حروف الكلمة من التّنافر بسبب القرب أو البعد، وقد أخذ عنه الرماني هذا الكلام حرفيّا.

كما تحدّث عن الحذف سواءً أكان في الفعل أم في جواب الشّرط إذا علم المخاطب المراد–وهو ما أصبح يُسمى في الاصطلاح البلاغي(القرينة)–وذلك لأنّ الحذف من الإيجاز وقد توسّع فيه كثيرا عبد القاهر الجرجاني متأثّرا بالخليل بن أحمد–رحمه الله–.

كما تناول الخليل زيادة الحروف وما تتركه في نفس السّامع من تأكيد، وعالج مصطلح التّعريف وأنّه لابدّ منه في الندبة لأنّ الأمر هو تفجّع وتألّم وبالتّالي لا يكون إلّا لمعلوم. كما تناول بالدّرس المعمّق قضيّة التّقديم والتّأخير، والفرق بين إنّ وإذا، والتّعبير بالماضي بدلا من المضارع لتحقّق وقوع الفعل والسّر البلاغي في وضع المثنى موضع الجمع. كذلك تناول التّشبيه وبعض أدواته لذلك نقول إنّ الخليل قد أسهم بنصيب وافر جدا في إقرار المصطلح البلاغي، وبهذا يكون هو أكبر عون لتلميذه سيبويه(ت180هـ) إمام النحاة.

لقد أفاض كثير من العلماء في مدح سيبويه، والثّناء على كتابه بكلّ إعجاب نظرا لعمله الكبير. فالجرمي(ت225هـ) يذكر أنّه:" مذ ثلاثين سنة يُفتي النّاس في الفقه من كتاب سيبويه"، فعقّب على المبرّد(ت285هـ) بقوله: ‘لأنّ الكتاب يتعلّم منه النّظر والتّفتيش".

ويقول ابن النّحاس (ت338هـ):" لم يزل أهل العربيّة يفضّلون كتاب سيبويه حتى قال محمد بن يزيد المبرّد لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه وذلك أنّ الكتب المصنّفة في العلوم مضطرّة إلى غيرها وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه من فهمه إلى غيره". ويقول ابن جنّي (ت392هـ):" وقد حطب(جمع) بكتابه وهو ألف ورقة علما مبتَكرا ووصفا متجاوزا لما يُسمع ويُرى". وإذا أردنا أن نستقصي آراء العلماء في هذا المصنّف لا يمكن أن نحيط بها.

وكما لاقى سيبويه وكتابه الثّناء والإعجاب فإنّ بعض الدّارسين قدحوا فيه وذمّوه أمثال الفرّاء(ت207هـ) وثعلب (ت291هـ)، وكذلك أبو موسى الحامض (ت305هـ) فهؤلاء يتّهمون سيبويه بالعجمة وقلّة الفصاحة، لكن هذا لم يؤثر إطلاقا في قيمة الكتاب وسمعته، فمَن يقرأ كتاب

سيبويه يجده يتحدّث في مواضع عديدة على ضرورة الحذف لأسباب تدخل مباشرة في فنون واصطلاحات البلاغة مثل: التّخفيف والإيجاز والسعة، وبيّن أنّ العرب قد جرت عادتها على الحذف وحبّذته في كلامها، وهذا ما نقله عنه عبد القاهر الجرجاني عندما تحدّث عن الحذف في كلام العرب وشبّهه بالسّحر.

ويمكن أن نزعم ونحن واثقين كلّ الثّقة أنّ سيبويه إمام النحاة وكذلك أستاذ البلاغيّين وذلك لأسبقيّته في وضع كثير من الاصطلاحات التي تشكّل معظم أبواب علم المعاني وكثيرا من أبواب علم البيان، وبعض الإشارات التي تشكّل فيما بعد مصطلحات علم البديع، إذن فهو الذي ساهم مساهمة فعّالة في وضع علم المعاني وساعد في وضع الأساس لعلم البيان، ونبّه على مصطلحات علم البديع. وقد يزعم البعض أنّ سيبويه عندما أشار إلى هذه المسائل البلاغيّة لم يكن يقصد إلى علم آخر سوى علم النحو؟

والرّد على هذا الزّعم ميسور هو أنّ سيبويه لم يكن يفرّق بين النّحو والبلاغة، كما أنّ النّحو لم يكن عنده مجرّد النّظر إلى أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء وما فيهما من حركات وسكنات، وإنّما النّحو عنده يشمل هذا كلّه، ويشمل أيضا تأليف الجملة ونظمها وأسرار تركيبها، وبيان ما فيها من حسن أو قبح، وهذا بالطّبع لا يشمل علم النّحو فقط وإنّما يشمل علوم البلاغة التي نعرفها اليوم فسيبويه إذن قد ساهم مساهمة كبيرة في وضع أسس البيان العربي قبل الجاحظ(ت255ه) بحوالي قرن من الزّمان.

وما نلاحظه هو أنّ سيبويه في الاصطلاحات التي نبّه عليها في علم البلاغة لم يضع لشيء منها قاعدة كليّة كما فعل من بعده البلاغيّون، وإنّما هو الذي مهّد لهم الطّريق ويسّرها لوضع تلك القواعد لهذا استحقّ لسيبويه ولكتابه منزلة خاصّة جدا عند مَن جاؤوا من بعده ونهلوا من علمه الغزير.

رحم الله إمام النحاة سيبويه فقد كان منارا يشعّ بالهداية لعلماء البلاغة، غير أنّ مباحثه النّحويّة أعشت بعض العيون، فلم يلتفتوا إلى مصطلحاته في البلاغة.

الأستاذ: رابح دوب